

كتاب مجلة " كَلِمَةُ حَق " (٨)
هدية العدد (١٩) من مجلة " كَلِمَةُ حَق " فبراير - ٢٠١٩
مختصر كتاب
النظام العالمي
تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ
هنري كيسنجر

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق" بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

الفصل الأول

أوروبا: النظام الدولي التعددي

ليس تاريخ أكثرية الحضارات إلا حكاية صعود إمبراطوريات وسقوطها، وقد جرى ترسيخ النظام عبر إرادتها الداخلية، لا عن طريق موازنة بين جملة دول ثابتة لدى بقاء السلطة المركزية متماسكة، أكثر عرضية في ظل حكام أضعف، وفي الأنظمة الإمبراطورية كانت الحروب تندلع عمومًا على تخوم الإمبراطورية أو بوصفها حروبًا أهلية، أما السلم فكان متماهيًا مع المدى الذي تبلغه القوة الإمبراطورية.

في الصين والإسلام كانت الصراعات تخاض من أجل التحكم بنوع من الإطار النظامي القائم، كانت السلالات الحاكمة تتبدل، إلا أن كل مجموعة حاكمة جديدة كانت تدعي استعادة نظام شرعي كان قد تعرض للتعطيل والشلل.

أما في أوروبا فإن تطورًا كهذا لم يترسخ؛ فمع انتهاء الحكم الروماني صارت التعددية هي السمة المميزة المحددة للنظام الأوروبي، فكرة أوروبا ظلت تسمية جغرافية، نوعًا من التعبير عن المسيحية أو مجتمع بلاط، أو بوصفها بؤرة تنوير مجتمع يخص المتعلمين والحداثة. ومع أنها كانت قابلة للفهم بوصفها حضارة واحدة، فإن أوروبا لم يسبق لها أن امتلكت إدارة موحدة أو هوية ثابتة موحدة.

بقيت أوروبا تزدهر على التشظي وتحتضن انقساماتها، والسلالات الحاكمة والقوميات المتنافسة المتمايزة لم تكن تعد صيغة من صيغ الفوضى التي ينبغي الإجهاز عليها، بل كانت تبدو على المنظار المثالي لساسة أوروبا آلية متقنة متوجهة نحو نوع من التوازن الحافظ لمصالح كل شعب وتماسكه واستقلاله.

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن عواهل أوروبا كانوا مفتقرين إلى القوة اللازمة لفرض إرادات بعضهم على البعض الآخر على نحو حاسم.

مع تفكك الإمبراطورية الرومانية، وإبان ما يطلق عليها عصور الظلام تركز حلم التناغم والوحدة على الكنيسة.

ففي النظرة العالمية تلك كان الملكوت المسيحي مجتمعًا موحدًا خاضعًا لإدارة نمطين متكاملين من أنماط السلطة الديكتاتورية المتسلطة، نمط الحكم المدني خلفاء القيصر، ونمط الكنيسة.

أحلام الوحدة تحققت لفترة وجيزة يوم عيد الميلاد 800م حين قام البابا ليو الثالث بتتويج شارلمان ملك الفرنجة إمبراطورًا على الرومان.

إلا أن إمبراطورية شارلمان لم تلب الطموح، وبدأت تتداعى لحظة تدشينها تقريبًا، ولم يمر عليها أكثر من قرن وغابت عن المشهد بعد أن أنهكتها الحروب الأهلية، على الرغم من أن اسمها ظل متدولاً على امتداد سلسلة متحولة من الأقاليم حتى 1806م.

أي ازدهار كامل لمفهوم نظام عالمي قروسطي لم يتم تصوره إلا لفترة وجيزة إبان صعود الأمير الهابسبورغي شارل (1500 - 1558)، وقد قام حكمه -أيضًا- بالتمهيد لانهياره، فقد كان يحكم تركة توازي مجموع المساحات الراهنة لكل من: النمسا، ألمانيا، إيطاليا الشمالية، جمهورية التشيك، سلوفاكيا، هنغاريا، فرنسا الشرقية، بلجيكا، هولندا، إسبانيا، وأجزاء كبيرة من الأمريكتين، هذا التراكم الهائل من النفوذ والسلطة السياسية لم يتحقق كليًّا تقريبًا إلا عبر مصاهرات وزواجات سياسية.

أقسم شارل لدى تتويجه على أن يكون حامي الكنيسة الرومانية المقدسة والمدافع عنها، كانت ثمة قارة خاضعة لرئاسة سلالة فريدة مشحونة بنوع من الإحساس بتفويض سماوي، ولو كان شارل قد نجح تعزيز سلطته كما في إدارة الخلافة المنتظمة في المجتمع الهابسبورغي المترامي الأطراف، لتم تشكيل أوروبا من قبل مرجعية مركزية مهيمنة مثل الإمبراطورية الصينية أو الخلافة الإسلامية.

لم يحصل ذلك، كما أن شارل لم يحاول.

آخر المطاف اكتفى بإسناد نظامه إلى عامل التوازن، لم يكتب النجاح لكونية الكنيسة الشاملة التي كان شارل يسعى لتسويغها، فقد أثبت عجزًا عن الحيلولة دون انتشار العقيدة البروتستنتية، عبر الأراضي التي كانت القاعدة الرئيسية لسلطته.

في نهاية المطاف قرر شارل التنازل عن ألقابه الوراثية وتقسيم إمبراطوريته الواسعة.

ثمة ثلاثة أحداث أكملت تفكك مثال الوحدة القديم، فعند موت شارل الخامس كانت التغييرات الثورية قد رفعت مشاهد أوروبا من مستوى مشروع إقليمي إلى مستوى مشروع عالمي ممزقة النظام القروسطي السياسي والديني إربًا، وثمة كانت بداية عصر الاكتشاف، عصر اختراع الطباعة، وعصر الانقسام والانشقاق في الكنيسة.

الحدث الأول

أعلنت الحقبة الحديثة ذاتها حين راحت مجتمعات مبادرة تطارد الأمجاد والثروات عبر استكشاف المحيطات وكل ما خلفها، ففي القرن الخامس عشر أقدمت أوروبا والصين على المغامرة والتوسع على نحو متزامن تقريبًا، ثمة مراكب صينية وهي الأكبر والأكثر تقدمًا في العالم آنذاك انطلقت في رحلات استكشاف واصلة إلى جنوب شرق آسيا، الهند، وسواحل إفريقيا الشرقية، وتبادل البحارة الصينيون الهدايا مع النبلاء المحليين، وعادوا إلى الوطن محملين بالكنوز والعجائب، إلا أن إمبراطور الصين ما لبث في أعقاب موت الملاح الرئيسي جينغ هي 3341م، أن أوقف مغامرات البحار، فجرى التخلي عن الأسطول.

صحيح أن الصين واصلت الإلحاح على الأهمية الكونية لمبادئها الخاصة بالنظام العالمي، غير أنها من الآن وصاعدًا ستعمل على زرعها في الوطن ولدى الأقوام الموجودة على تخومها، كفت بالمطلق عن محاولة بذل أي محاولة مشابهة، وربما إلى زماننا.

بعد ستين سنة أبحرت القوى الأوروبية من قارة مرجعيات سيادية متنافسة، وتولى كل عاهل رعاية الاستكشاف البحري طمعًا في تحقيق نوع من التفوق التجاري أو الاستراتيجي على منافسيه.

الحدث الثاني

تمثل الحدث الثاني لاختراع نمط الطباعة القابل للنقل في منتصف القرن الخامس عشر، الأمر الذي وفر إمكانية تقاسم المعرفة على نطاق لم يكن متخيلاً من قبل المجتمع القروسطي، الذي درج على عادة تخزين المعرفة عبر الاستظهار، أو عن طريق النسخ اليدوي.

الحدث الثالث

انتفاضة الإصلاح الديني البروتستنتي، مع مبادرة مارتن لوثر إلى طرح مبادراته مؤكدًا علاقة الفرد المباشرة بالرب، مما أدى إلى جعل الوجدان الفردي لا الأصولية الأرثوذكسية الراسخة قابلاً لأن يطرح بوصفه مفتاح الخلاص.

عدد من الحكام الإقطاعيين انتهزوا الفرصة لتعزيز سلطتهم عن طريق تبني البروتستنتية فارضينها على كتلهم السكنية، ومغتنين عبر السطو على الأراضي الكنسية.

كان كلاً من الفريقين يتهم الآخر بالهرطقة، وما لبثت الخلافات أن انقلبت إلى صراعات حياة أو موت.

تمخضت حركة الإصلاح الديني البروتستنتي عن نسف مفهوم أي نظام عالمي قائم على سيفي البابوية والإمبراطورية.

حرب السنوات الثلاثين: ما معنى المشروعية؟

أدت الفترة التي عنونتها الأجيال اللاحقة: حرب السنوات الثلاثين (1618 - 1648م)، إلى دفع الفوضى نحو ذروتها مع اقتراب موعد وراثة الإمبراطورية، ومحاولة بعض الأمراء البروتستنت إحداث نوع من التغيير في النظام عارضة تاجها وصوتها الانتخابي على أمير ألماني بروتستنتي، تحركت القوات الإمبراطورية لسحق التمرد مطلقة حربًا دمرت أوروبا الوسطى.

في أي فترة غليان عام، يكون البلد الذي يحافظ على سلطته الداخلية في وضع يمكنه من استغلال الفوضى في الدول المجاورة وتوظيفها لخدمة أغراض دولية أكبر.

كان ريشيليو الوزير الفرنسي هو الكاهن المتقن لفنون دسائس البلاط، وحين كان متوليًا توجيه مخططات بلده، كانت أبحاث ميكافيلي حول فنون السياسة قيد التداول، ومن غير المعروف ما إذا كان ريشليو مطلعًا على هذه النصوص، لكن المؤكد أنه مارس مبادئها الأساسية.

قام ريشليو بتطوير مقاربة جذرية للنظام الدولي، وابتكر فكرة أن الدولة كيان مجرد ودائم موجود بحد ذاته، لم تكن شروط الدولة لتتحدد بشخصية حاكمها، أو بالمصالح العائلية، أو

مطالب الدين الكونية الشاملة، كان نبراسها الهادي متمثلاً بالمصلحة القومية القائمة على أساس مبادئ قابلة للحساب، والبروز، متمثلاً فيما بات يعرف باسم سبب وجود الدولة، ومن هنا وجوب كون الدولة الوحدة الأساسية في العلاقات الدولية.

لم ير ريشيليو الفوضى في أوروبا الوسطى دعوة إلى حمل السلاح دفاعًا عن الكنيسة، بل وسيلة للجم طغيان إمبراطورية آل هابسبورغ، وأقدمت فرنسا على دعم التحالف البروتستنتي لكل من السويد وبروسيا وأمراء ألمانيا الشرقية، من منطلق حسابات قومية باردة.

ردًّا على الشكاوى الغاضبة من إخلاله بوصفه كاردينالاً بواجبه تجاه الكنيسة الكاثوليكية، سارع ريشيلو إلى إبراز واجباته بوصفه وزير كيان سياسي زمني، ولكنه سريع العطب، قد يكون الخلاص هدفه الشخصي، أما بوصفه رجل دولة، فقد كان مسؤولاً عن كيان سياسي، وكان يقول: "الإنسان خالد خلاصه في العالم الآخر، أما الدولة فلا علاقة لها بالخلود، خلاصها إما الآن أو لا إلى الأبد".

كان ريشيلو ينظر إلى تشظي أوروبا الوسطى بوصفه ضرورة سياسية وعسكرية، فمن شأن أي أوروبا وسطى موحدة أن تكون في وضع يمكنها من الهيمنة على باقي القارة، وكانت من مصلحة فرنسا القومية أن تحول دون تلاحم أوروبا الوسطى.

ثمة ثلاثة استنتاجات تستخلص من حياة ريشليو المهنية، يبقى العنصر الذي لا يمكن الاستغناء عنه لأي سياسة خارجية ناجحة متمثلاً بمفهوم استراتيجي طويل المدى قائم على تحليل معمق لجملة العوامل ذات العلاقة:

أولاً: يتعين على السياسي أن يستقطر الرؤية عبر تحليل وتشكيل حشد من الضغوط الغامضة المتضاربة غالبًا في إطار توجه متماسك وهادف.

ثانيًا: أن يعرف ما تفضي إليه هذه الاستراتيجية.

ثالثًا: على السياسي أن يتحرك على الحافة الخارجية لما هو ممكن جاسرًا الهوة الفاصلة بين تجارب مجتمعه وتطلعاته، ولأن تكرار المألوف يؤدي إلى الاستنقاع فإن قدرًا غير قليل من الجرأة يبقى مطلوبًا.

سلام وستفاليا

توصل ممثلو الإمبراطورية المقدسة وعدوتيها الرئيستين فرنسا والسويد إلى التوافق من حيث المبدأ على عقد مؤتمر للسلام، ولعل السلام الذي تمخضت عنه هذه المناقشات الالتفافية المعقدة هو الوثيقة الدبلوماسية الأكثر ورودًا في التاريخ الأوروبي.

شكل سلام وستفاليا منعطفًا في تاريخ أمم؛ لأن العناصر التي أوجدها كانت كاسحة بمقدار ما كانت خالية من التعقيد، الدولة لا الإمبراطورية، السلالة أو العقيدة الدينية تأكدت بوصفها وحدة بناء صرح النظام الأوروبي.

جرى ترسيخ مفهوم سيادة الدولة، جرى تأكيد حق كل طرف موقع في اختيار بنيته الداخلية الخاصة وتوجهه الديني، بعيدًا عن أي تدخل، فيما كانت بنود جديدة ضامنة لتمكين الأقليات الطائفية من ممارسة شعائرها بسلام.

كانت جملة مبادئ نوع من نظام علاقات دولية تتشكل بدافع الرغبة المشتركة في تجنب أي تكرار لحرب شاملة على القارة الأوروبية، أما عمليات التبادل الدبلوماسي فقد صممت لتنظيم العلاقات وتدعيم ركائز السلام.

كانت البنية التي رسخها سلام وستفاليا تمثل المحاولة الأولى لتأسيس نظام دولي قائم على أساس وقواعد وحدود متفق عليها، وإسناده إلى تعددية قوى بدلاً من هيمنة بلد واحد.
أدى بروز بريطانيا كقوة بحرية رئيسية مع حلول أوائل القرن الثامن عشر إلى توفير إمكانية ترجمة وقائع توازن القوى إلى نوع من النظام أو المنظومة، وطوال بقائها على صواب في تقويم حاجاتها، كان من شأن إنكلترا أن تظل قادرة على دعم الجانب الأضعف في القارة ضد الطرف الأقوى، وإلى حين اندلاع الحرب العالمية الأولى ظلت إنكلترا تضطلع بدور موازنة التعادل، صحيح أنها قاتلت في حروب أوروبا، لكنها مع تحالفات متبدلة لا سعيًا وراء أهداف قومية خالصة.

كان ثمة توزانان للقوة تمت إدارتهما في أوروبا بعد التسوية، التوازن الشامل الذي تولت فيه إنكلترا دور الوصاية، وتوازن أوروبا الوسطى الخاضع أساسًا لتحكم فرنسا والذي يهدف إلى الحيلولة دون انبثاق ألمانيا موحدة في وضع يمكنها من أن تصبح الدولة الأقوى.

من الممكن تحدي توازن القوى بإحدى طريقتين:

أولاً: حين يقوم بلد رئيسي بتضخيم قوته إلى حدود التهديد بفرض الهيمنة.

ثانيًا: حين تحاول دولة كانت من قبل ثانوية الالتحاق بركب القوى الرئيسية فتدفع القوى الأخرى إلى إطلاق سلسلة من التعديلات التعويضية وصولاً إلى استحداث تعادل جديد، أو إلى اندلاع حريق عام.

تعرضت المنظومة الوستفالية للاختبارين كلاهما في القرن الثامن عشر، وأحبطت اندفاع لويس الرابع عشر الفرنسي نحو الهيمنة، وتكيفت بعد ذلك مع إصرار فريدريك العظيم البروسي (ملك بروسيا) على التكافؤ.

الثورة الفرنسية وعواقبها

تندلع الثورات لدى تضافر جملة متنوعة من ألوان الاستياء المختلفة غالبًا للانقضاض على نظام مطئمن البال لا يراوده شك.

وكلما كان التحالف الثوري أوسع كانت القدرة على تدمير أنماط السلطة والمرجعية القائمتين أعظم.

تكرر الأمر مع الثورة الفرنسية التي أعلنت نظامًا داخليًّا وعالميًّا مختلفًا قدر الإمكان عن النظام الوستفالي، وقامت بإحياء وربما مضاعفة أهواء وآلام حرب السنوات الثلاثين؛ إذ أحلت نوعًا من العدوانية العلمانية محل حافز القرن السابع عشر الديني.

دعاوى الثوريين الفرنسيين تفوقت على كثير من مفاهيم ريشيلو لسلطة الدولة؛ إذ جعلوا السيادة في مقولة مجردة لا في أفراد شعب، بل شعوب كاملة بوصفها كيانات غير قابلة للتقسيم مشروطة بالوحدة على صعيدي الفكر والعمل، وصولاً إلى تعيين أنفسهم ناطقين باسم الشعب مجسدين إياه في الحقيقة.

قام عراب الثورة الفكري جان جاك روسو بصوغ هذا الادعاء الكوني في سلسلة من الكتابات، وأصر على شجب سائر المؤسسات القائمة، مؤسسات الملكية والدين والطبقات الاجتماعية، مرجعية الحكم، المجتمع المدني، بوصفها وهمًا وزيفًا، وكان لا بد للبديل من أن يتمثل بنوع جديد من حكم إدارة في النظام الاجتماعي، يتعين على السكان الخضوع له، بانصياع لم يسبق لأي حاكم صاحب حق إلهي أن يتخيله.

وتبعًا لهذه الأيديولوجيا عدت سائر الأنظمة الملكية معادية، ولأن هذه الأنظمة لم تكن مستعدة للتنازل عن السلطة دون مقاومة، تعين على الثورة كي تسود أن تتحول إلى حركة دولية كفاحية (نضالية، صليبية)، لبلوغ هدفها.

استندت الثورة إلى أطروحة شبيهة بتلك التي أطلقها الإسلام من قبل ألف سنة،

والشيوعية في القرن العشرين، وهي استحالة العيش بين بلدان ذوات تصورات دينية أو سياسية متباينة.

قامت الثورة بإعادة ضم السياسة الداخلية إلى نظيرتها الخارجية، ضم المشروعية إلى السلطة، اللتين كان فصلهما من جراء التسوية الوستفالية.

أعلنت الثورة الفرنسية في نوفمبر 1792 عن تقديمها الدعم العسكري الفرنسي للثورات الشعبية في كافة الأمكنة؛ لمساعدة الشعوب العازمة على استعادة حريتها.

كتب روسو قائلاً: كل من يرفض الانصياع للإرادة العامة سيجبر حتمًا على ذلك من قبل الجسم كله، سيتم إجباره على أن يكون حرًّا.

وسارعت الثورة بنشر هذا التعريف للمشروعية على البشرية كلها.

ومن أجل بلوغ هذه الأهداف، دأب قادة الثورة الفرنسية على تطهير بلدهم من كل إمكانية لنشوء معارضة داخلية، قتل "الإرهاب" الآلاف من المنتسبين إلى الطبقات الحاكمة السابقة وسائر الخصوم الداخليين.

أعلن نابليون نفسه "القنصل الأول مدى الحياة"، وإمبراطورًا بعد ذلك، وتمثل جوهر الرجل برفضه الاعتراف بالحدود التقليدية وبإصراره على تنظيم العالم وفق مرجعيته الخاصة.

لم يحاول نابليون السيطرة على أوروبا وتوحيدها إلا تجسيدًا للثورة من ناحية، وتعبيرًا عن التنوير من ناحية أخرى.

مع الحروب الثورية والنابليونية كان عصر الحرب الشاملة قد حل، حتى بادرت باقي أوروبا إلى الاتحاد ضده في تسويغ جاء متأخرًا لمبادئ وستفاليا، في معركة الأمم بلايبزغ 1813 وهزيمة نابليون.

كانت الفترة النابليونية عنوان تمجيد التنوير وتأليهه، كان مفكرو تلك الفترة مستلهمين مثالي اليونان وروما، وجعلوا التنوير مساويًا لقوة العقل، بمعنى انتقال السلطة من الكنيسة إلى نخب علمانية.

الفصل الثاني

نظام توازن القوة الأوروبي وانتهاؤه

اللغز الروسي

لدى انتهاء حقبة الثورة الفرنسية ونابليون، كانت القوة الروسية تحتل باريس في عرض مذهل لانقلابات التاريخ.

التحقت روسيا بركب توازن القوى في أوروبا الغربية عبر الانخراط في حرب السنوات الثلاثين، ومنذ ذلك الانخراط، ظلت روسيا تلعب دورًا فريدًا في الشؤون الدولية، كجزء من توازن القوة في كل من أوروبا وآسيا، ولكن غير مساهمة في توازن النظام الدولي إلا على نحو متقطع.

راح الأوربيون الغربيون الخارجون من إعصار الانتفاضات النابليونية ينظرون برهبة وخوف إلى بلد مساحته وقواته المسلحة تقزمان نظيراتهما مجتمعة في باقي القارة.

مؤتمر فيينا

كان السياسيون الذين اجتمعوا في فيينا لمناقشة كيفية تصميم نظام سلمي قد جاءوا خارجين من قلب دوامة انتفاضات، ففي غضون 25 سنة كانوا قد شاهدوا أهواء حكم الإرهاب وألوان طيشه حالة محل عقلانية التنوير، وروح الثورة الفرنسية التبشيرية متحولة بفعل الإمبراطورية البونابرتية الغازية إلى شيء آخر.

كان النظام الذي أقيم في مؤتمر فيينا هو الأقرب من الإدارة الكونية الشاملة، الذي وصلت إليه أوروبا منذ انهيار إمبراطورية شارلمان، وأفضى المؤتمر إلى نوع من التوافق على أن التطورات السلمية في إطار النظام القائم مفضلة على البدائل، وعلى أن صوت النظام أهم من أي نزاع قد ينشب في داخله، وعلى أن الخلافات يجب حلها بالتشاور.

كان لابد لذلك التوازن من أن يكون قادرًا على الحيلولة دون تكرر النزعة التوسعية الفرنسية.

كانت المعاهدات الوستفالية أبقت أوروبا الوسطى مقسمة تعزيزًا لنفوذ فرنسا، لكن مؤتمر فيينا رأى دمج بعض دولها الأصغر لقطع الطريق على الإغراءات الهجومية، وكانت

الجهة المرشحة لاستيعاب هذه الإمارات الملغاة "بروسيا".

جمعت الدول الألمانية السبع والثلاثين في كيان عرف باسم الاتحاد الألماني، كان الاتحاد الألماني شديد الانقسام بما يحول دون الإقدام على الهجوم، ولكن على درجة من التماسك في الوقت نفسه تكفي لمقاومة الغارات الأجنبية على حدوده.

تم تشكيل تحالف بريطانيا، بروسيا، النمسا وروسيا الرباعي لحماية التسوية الرباعية الإقليمية الشاملة.

كما تم تضمين الحلف المقدس المقترح من القيصر الروسي للحفاظ على النظام الشرعي، أي: الملكي حسب رأيها، والحلف كان يوفر آلية لحماية الأمر الواقع الداخلي في طول أوروبا وعرضها.

دعمت منظومة فيينا ثلاث طبقات من المؤسسات: الحلف الرباعي لهزيمة التحديات المنتصبة في وجه النظام الإقليمي، الحلف المقدس للتغلب على الأخطار المهددة للمؤسسات الداخلية، وجوقة قوى ممأسسة عبر سلسلة من المؤتمرات الدبلوماسية الدورية لرؤساء حكومات الحلفين لتحديد أهدافها المشتركة، أو معالجة أزمات ناشئة.

مقدمات النظام الدولي

بدأ توزان نظام مؤتمر فيينا الحساس يتآكل في منتصف القرن التاسع عشر تحت تأثير ثلاثة أحداث: صعود النزعة القومية، ثورات الـ1848، وحرب القرم.

مأزق توازن القوى

مع تعيين بسمارك رئيس وزراء للنمسا في 1862، ومع بقاء الأنظمة الملكية المحافظة في الشرق منقسمة في أعقاب حرب القرم، وفرنسا معزولة في القارة جراء الذكريات، رأى بسمارك فرصة مواتية لإنجاز دولة قومية ألمانية للمرة الأولى في التاريخ، وبعدد من الضربات الجريئة بين عامي 1862 و1860، أجلس بروسيا على رأس ألمانيا موحدة.

في النهاية تم اختزال نظام أوروبا الجديد إلى خمس قوى كبرى، اثنتان منها فرنسا وألمانيا كانتا على خلاف غير قابل للحل.

وعبر سلسلة طويلة من المعاهدات والاتفاقات والأحلاف بين الدول، نشبت الحرب العالمية الأولى؛ لأن قادة سياسيين فقدوا السيطرة على تكتيكاتهم الخاصة.

المشروعية والقوة في فترة ما بين الحربين

أدت الحرب إلى نسف النظام الدولي السائد من أساسه، وحاول سياسيو أوروبا اجتراح فترة ما بعد حرب مختلفة قدر الإمكان عن الأزمة التي كانت بنظرهم قد أفضت إلى الحرب العظمى.

معاهدة فيرساس 1919 رفضت استعادة ألمانيا إلى النظام الأوروبي، مثلما كان مؤتمر فيينا قد تضمن قبول فرنسا مهزومة، ومع حرمان ألمانيا معنويًّا من الانخراط في تسوية فرساي من ناحية وعدم التصدي لها بميزان قوى واضح قادر على إلغاء تحدياتها من ناحية ثانية، لم يفعل نظام فرساي شيئًا سوى تشجيع نزعة المراجعة الألمانية الارتدادية.

لم تتوفر إمكانية الحيلولة دون قيام ألمانيا بتأكيد تفوقها الاستراتيجي المحتمل إلا عبر بنود تميزية، شكلت تحديًّا لقناعات الولايات المتحدة الأخلاقية، وبريطانيا العظمى إلى درجة متصاعدة، وما إن بدت ألمانيا تتحدى التسوية حتى صار الحفاظ على بنود هذه التسوية بحاجة إلى التوظيف القاسي للأسلحة الفرنسية، أو إلى نوع من أنواع الانخراط الأمريكي الدائم في شؤون القارة، وأي من الأمرين لم يكن متاحًا.

وفي عام 1925 كانت اتفاقية لوكارنو التي قبلت فيها ألمانيا بالحدود الغربية ونزع سلاح حوض الراين.

مع وصول هتلر 1933 إلى السلطة في ألمانيا سارع إلى نفض يده من جميع الضوابط، وتسلح مجددًا، منتهكًا شروط فرساي وأطاح بتسوية لوكارنو معيدًا احتلال حوض الراين، وحين أخفقت تحدياته في استثارة قدر ذي شأن من الرد، راح هتلر يفكك دول أوروبا الوسطى والشرقية الواحدة بعد الأخرى، النمسا أولاً متبوعة بتشيكوسلوفاكيا وأخيرًا بولونيا.

طبيعة هذه التحديات لم تكن محصورة بثلاثينيات القرن العشرين، ففي كل حقبة تتولى البشرية إنتاج أفراد أبالسة وأفكار قمع تخريبية شريرة، وما مهمة الحنكة السياسية سوى منع صعودهما إلى مواقع السلطة والعمل على إدامة نظام دولي مؤهل لردعهما إذا ما فعلا.

خلطة سنوات ما بين الحربين المسمومة الجامعة بين النزعة السلمية السهلة، واختلال التوازن الاستراتيجي، وتشرذم متحالف، ما لبثت أن أطلقت أيدي هذه القوة.

النظام الأوروبي بعد الحرب

نتيجة لحربين عالميتين تعرض مفهوم السيادة الوستفالية ومبادئ توازن القوة لقدر كبير من التضاؤل في نظام القارة.

مع نهاية الحرب الحرب العالمية الثانية كانت قدرات أوروبا المادية والسايكولوجية على تنظيم العالم وضبطه قد أوشكت على التلاشي، كل بلد أوروبي قاري باستثناء سويسرا والسويد كان واقعًا تحت احتلال قوات أجنبية، في وقت صار فيه اقتصاد كل بلد ركامًا، وبات واضحًا أن ليس ثمة أي بلد أوروبي قادر على مواصلة صوغ مستقبله وحده.

أن تهتدي أوروبا الغربية إلى القوة الأخلاقية اللازمة للانطلاق على طريق مقاربة جديدة للنظام كان من صنع ثلاثة عظماء: كونراد أديناور في ألمانيا، وروبير شومان في فرنسا، وألسايد دي غاسبيري إيطاليا.

تمثلت قناعاتهم الأهم بضرورة التغلب على انقسامات أوروبا التاريخية وصولاً إلى بناء صرح نظام أوروبي جديد، على ذلك الأساس.

بدأت فرنسا وألمانيا البلدان اللذان كان تنافسهما لب كل الحروب الأوروبية على امتداد ثلاثة قرون رحلة التعالي على التاريخ الأوروبي عبر دمج عناصر أساسية من قوتهما الاقتصادية الباقية، ففي عام 1952، شكلتا اتحاد الفحم والفولاذ خطوة أولى على طريق وحدة متزايدة باطراد للشعوب المكونة لأوروبا، وحجر أساس لنظام أوروبي جديد.

كانت الشعوب الأوروبية قد ظلت تسلم بأن عناصر توازن القوة مهما كانت التقلبات والذبذبات كانت مقيمة في أوروبا، إلا أن عالم الحرب الباردة المنبثق كان عاكفًا على التماس توازناته في سلوك وتسلح قوتين عظميين، الولايات المتحدة الأمريكية عبر الأطلسي، والاتحاد السوفيتي على الحافات الجغرافية لأوروبا.

جاء حلف شمال الأطلسي ليرسخ إطارًا من التشاور بين الولايات المتحدة وأوروبا، وقدرًا من التماسك في إدارة السياسة الخارجية.

عمليًّا بقي النظام الدولي إبان المرحلة الأولى من الحرب الباردة ثنائي القطب، مع

تولي أمريكا جوهريًّا بوصفها الشريكة الرائدة مهمة إدارة وتشغيل الحلف.

تتوفر الولايات المتحدة على جميع الأسباب المستمدة من التاريخ والجغرافيا السياسية تمكنها من تدعيم الاتحاد الأوروبي، والحيلولة دون انزلاقه إلى نوع من الفراغ الجيوسياسي، ومن شأن الولايات المتحدة إذا ما فصلت عن أوروبا على الأصعدة السياسية، الاقتصادية، والدفاعية، أن تصبح جيوسياسيًّا جزيرة في عرض البحار المشاطئة لأوراسيا، كما أن من شأن أوروبا نفسها أن تتحول إلى كيان تابع للنفوذين الآسيوي والشرق أوسطي.

الفصل الثالث

الحركة الإسلاموية والشرق الأوسط

عالم في عين الفوضى

مع ظهور الدين الإسلامي تقدم تقدمًا عاصفًا عبر ثلاث قارات، أقنع المؤمنين بسماوية رسالته، مدفوعًا بالإيمان بأن من شأن انتشاره أن يوحد البشر جالبًا لهم السلم، كان الإسلام دينًا أولاً، ودولة متعددة الإثنيات ثانيًا، ونظامًا عالميًّا جديدًا ثالثًا.

تمثلت رسالة الإسلام بإذابة جملة الأقاليم في بوتقة نظامه العالمي وصولاً إلى تحقيق السلام الكوني الشامل عبر استراتيجية "الجهاد".

تداعى مشروع النظام العالمي مع تراجع موجة التوسع الإسلامي الأولى في أوروبا، معارك بواتييه وتور في 237، ونجح الدفاع البيزنطي في آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية طوال أربعة قرون في صون خط بدأ الغرب خلفه تطوير أفكار ما بعد الرومانية عن النظام العالمي، ثم كانت الحملات الصليبية والتي تمكنت من الاستيلاء على القدس 9901، ثم كانت عملية إعادة فتح إسبانيا2941 من قبل المسيحيين.

في القرن الثالث عشر عاد حلم النظام الكوني إلى الظهور، مع الإمبراطورية العثمانية.

راح العثمانيون يبنون خلفًا للعهود الإسلامية العظيمة التي كانت في القرون الأولى، وتوغلوا في البلقان أولاً، ونجحوا في 3541 في فتح القطسطنطينية، عاصمة بيزنطية، المتطية مضيق البوسفور جيو استراتيجيًّا.

مثلما كانت أسلافها قد فعلت قبل خمسة قرون، تواصلت الإمبراطورية العثمانية مع أوروبا الغربية لدى توسعها غربًا، وظل العثمانيون يرفضون التسليم بأن الدول الأوروبية مشروعة أو حتى مكافئة؛ نظرا لأن الإمبراطورية العثمانية كانت أكبر جغرافيًّا من كل الدول الأوروبية الغربية مجتمعة، وأقوى عسكريًّا لعقود من أي ائتلاف قابل للتصور فيما بينها.

الإمبراطورية العثمانية

رجل أوروبا المريض

تواصلت الإغارت العثمانية على النظام الأوروبي، وكان أبرزها تلك التي طرقت أبواب فيينا.

وفي أواخر القرن الثامن عشر وبزخم متزايد عبر القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوروبية تعكس العملية تدريجيًّا.

كانت الإمبراطورية العثمانية قد أصيبت بالتصلب والجمود حين بادرت فئات دينية متزمتة (أصولية)، في البلاط إلى مقاومة التحديث.

ضغطت روسيا والنمسا في قلب البلقان، في حين كانت فرنسا وبريطانيا تتنافسان على النفوذ في مصر -جوهرة تاج الإمبراطورية العثمانية.

راحت القوى الغربية تتعامل مع الإمبراطورية العثمانية المأزومة والمتشنجة جراء اضطراباتها الداخلية بوصفها "رجل أوروبا المريض".

حاولت القوى الأوروبية الكبرى على امتداد القرن التاسع عشر تقاسم الممتلكات العثمانية دون الإخلال بتوازن القوة الأوروبي.

أما العثمانيون من جانبهم، فقد وقع اختيارهم على ملاذ الضعيف، فحاولوا التلاعب بالقوى المتبارية لبلوغ الحدود القصوى من حرية الحركة.

وعلى هذا النحو أقدمت الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر على الالتحاق بركب التوازن الأوروبي، عضوًا مؤقتًا في نظام وستفاليا الدولي، غير أنها لم تكن سوى قوة متقهقرة بعيدة عن التحكم الكلي بمصيرها.

جاءت الحرب العالمية الأولى ووضعت حدًّا للمناورة المسكونة بالحذر، تحالف العثمانيون مع ألمانيا ودخلوا الحرب من منطلقات مستمدة من النظاميين الدوليين الوستفالي والإسلامي كليهما.

اتهم السلطان العثماني روسيا بانتهاك الحياد المسلح للإمبراطورية عبر شن هجوم غير مبرر "سبب وستفالي للحرب"، وسارع المسؤول الديني العثماني الأول إلى إعلان الجهاد متهمًا روسيا وفرنسا وبريطانيا بشن هجمات بهدف الإجهاز على الإسلام.



تجاهل المسلمون في الإمبراطورية العثمانية إعلان الجهاد، وكذلك قيادات إسلامية بارزة وأساسية في الهند البريطانية، متركزة بدلاً من ذلك على تزخيم فعاليات حركة الاستقلال، أما في شبه الجزيرة العربية فقد استيقظت التطلعات الوطنية القومية المعادية بالفطرة للعثمانيين.

النظام الوستفالي والعالم الإسلامي

معاهدة سيفر الموقعة 0291 مع ما بقي من الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى أعادت رؤية الشرق الأوسط فسيفساء دول، وهذا مفهوم لم يسبق له أن كان جزءًا من مفرداته السياسية.

وكان اتفاق سايكس بيكو قد قسم الشرق الأوسط إلى ما باتت في المحصلة مناطق نفوذ، تمخض نظام الانتداب، كما صادقت عليه عصبة الأمم.

كما صدر وعد بلفور 7191 لإقامة وطن قومي لليهود.

وفي عام 4291 أقدم القادة الوطنيون العلمانيون للجمهورية التركية المعلنة حديثًا على إلغاء المؤسسة الرئيسية للوحدة الإسلامية، مؤسسة الخلافة، وعلى إعلان دولة علمانية، ومنذ ذلك التاريخ بات العالم الإسلامي مشطورًا بين نظام وستفاليا الدولي المظفر من ناحية، ومفهوم دار الإسلام غير القابل للتحقق الآن من ناحية ثانية، ومجتمعات الشرق الأوسط المفتقرة إلى ما يكفي من الخبرة بادرت إلى إعادة تعريف نفسها بوصفها دولاً حديثة، داخل حدود كانت بأكثريتها ذات جذور تاريخية.

برز تياران متنافران داخل الدول العربية: الأول: دعا إلى الوحدة العربية، وسلموا بمنطق نظام قائم على أساس الدولة، إلا أن الدولة التي أرادوها كانت دولة (أمة) عربية واحدة، كيان إثنوي لغوي وثقافي موحد، والتيار الثاني: "الإسلام السياسي" يصر على اعتماد الدين المشترك أداة مثلى لامتلاك هوية عربية حديثة.

راح القادة العسكريون الآتون من قطاعات سكانية مستبعدة من العملية السياسية، يوسعون دائرة تأييدهم الشعبي عبر رفع الشعارات القومية الوطنية.

ثمة ثقافات سياسية شعبوية لكنها غير ديمقراطية، تجذرت في المنطقة، فخرج جمال عبد الناصر وخلفه السادات، وفي العراق كان صدام حسين.

إلا أن الموروث الإسلامي سرعان ما عاد إلى تأكيد ذاته، وراحت أحزاب إسلامية تدعو إلى

إقامة حكم ديني إسلامي شامل، بدلاً من الدول الموجودة، وكثيرون بادروا إلى دعم رؤيتها بأعمال إرهابية انتهازية.

جاء رد فعل الحكام العسكريين قاسيًا، قامعين الحركات السياسية الإسلاموية، التي اتهموها بتقويض عملية التحديث وبناء الدولة.

كما استغل هؤلاء الحكام العسكريون تنافس قوى الحرب الباردة لتعزيز نفوذهم، فمن أواخر الخمسينيات إلى أوائل السبعينيات، ظل الاتحاد السوفيتي أداة ضغط على الولايات المتحدة، وغدا المزود الرئيس بالسلاح والنصير الدبلوماسي للدول العربية الوطنية القومية. كانت القضية الأيديولوجية الوحيدة الموحدة لوجهات النظر العربية هي مسألة إسرائيل. انتقال السادات النابع من المصلحة القومية الوطنية، عمليًّا إلى الفلك المعادي للسوفييت، دشن فترة حركة ديبلوماسية مكثفة أفضت إلى اتفاقتي فصل قوات بين مصر وإسرائيل، واتفاقية سلام في 9791.

تحركات السادات الجريئة لم تعدم مقلدين راغبين في التوصل إلى تسويات مشابهة مع الدولة اليهودية.

الحركة الإسلاموية

المد الثوري - تفسيران فلسفيان

في الرسالة التي قدمها حسن البنا إلى الملك فاروق 7491 قدم فيها بديلاً إسلاميًّا عن الدولة الوطنية العلمانية، لخص البنا في رسالته مبادئ وتطلعات جماعة الإخوان المسلمين، والتي كان قد أسسها البنا 8291 لمحاربة ما رآها التأثيرات المفسدة للنفوذ الأجنبي وطرائق الحياة العلمانية.

شدد البنا على أن الغرب المتألق بفضل كماله العلمي منذ أمد طويل مفلس الآن ومتدهور، وباتت القوى الغربية فاقدة التحكم لنظامها العالمي الخاص.

كان البنا يعلن صراحة أن فرصة إيجاد نظام عالمي جديد قائم على أساس الإسلام قد حلت.

كان البنا يقول: إن ولاء أي مسلم حقيقي لفضاءات متعددة، متداخلة يتوجها نظام إسلامي موحد من شأن مداه الشرعي أن يحتضن العالم في النهاية، يتمثل وطنه أولاً ببلد معين، ثم يمتد إلى البلدان الإسلامية الأخرى؛ لأنها كلها وطن وموئل للمسلم، وبعد ذلك

يتطور ليصبح إمبراطورية إسلامية.

قام سيد قطب بتأليف كتابه معالم في الطريق وهو بيان حرب على النظام العالمي القائم، ما لبث أن غدا نصًّا تأسيسيًّا للحركة الإسلاموية الحديثة.

الإسلام بنظر "قطب" نظام كوني شامل، يوفر الصيغة الصحيحة الوحيدة للحرية، للتحرر من حاكمية بشر آخرين، ويتحرر من عقائد من صنع البشر أو روابط دينية قائمة على العنصر واللون، أو على اللغة والبلد وعلى المصالح الإقليمية والوطنية والقومية.

تمثلت رسالة الإسلام الحديثة برأي قطب في إطاحة ذلك كله والاستعاضة عنه بما عده تطبيقًا حرفيًّا عالميًّا آخر المطاف للقرآن.

وقد ظلت هذه الآراء تشكل شعارات استنفار الجذريين والجهاديين في الشرق الأوسط وخارجه لعقود من الزمن.

كتلة الأفكار هذه تمثل عكسًا شبه كلي، وقلبًا لنظام وستفاليا العالمي، لا تستطيع الدول أن تكون المنطلق المناسب لأي نظام دولي؛ لأن الدول علمانية، إذن غير شرعية.

الربيع العربي والزلزال السوري

للحظات عابرة أنعش الربيع العربي الذي بدأ في أواخر 0102 الآمال في أن موجة إصلاح جديدة نجحت في إزاحة قوى الاستبداد والجهاد المتصارعة عن الطريق.

كثيرون في الغرب فسروا انتفاضة ساحة التحرير في مصر تسويغًا للرأي القائل بأن بديل الاستبداد كان يجب أن يتم اجتراحه في موعد أبكر بكثير، إلا أن المشكلة الفعلية تمثلت بأن الولايات المتحدة وجدت صعوبة في الاهتداء إلى عناصر يمكن تأليف مؤسسات تعددية منهم أو إلى قادة ملتزمين بممارستها.

تطلعات أمريكا الديموقراطية بالنسبة إلى المنطقة، هي تطلعات تتبناه إدارات الحزبين كليهما، تمخضت عن تعبيرات بليغة، عن نزعة الولايات المتحدة المثالية إلا أن تصورات الضرورات الأمنية ونظيرتها المتعلقة بتعزيز الديموقراطية غالبًا ما كانت متصادمة، أولئك الملتزمون بإشاعة الديموقراطية وجدوا صعوبة في الاهتداء إلى قادة يسلمون بأهمية الديموقراطية بوصفها شيئًا آخر غير وسيلة لتحقيق أهدافهم، في الوقت نفسه لم يكن

رافعو راية الضرورة الاستراتيجية قادرين على إثبات مدى أهلية الأنظمة القائمة للتطور في أي وقت لطريقة ديموقراطية، بل حتى إصلاحية.

لم تتمكن مقاربة إشاعة الديموقراطية من ردم الهوة الفاصلة عن نقطة الانطلاق نحو أهدافها، أما المقاربة الاستراتيجية، فتعرضت للشلل جراء جمود المؤسسات المتوفرة.

أطلق الربيع العربي انتفاضة جيل جديد طلبًا للديموقراطية الليبرالية، سرعان ما تعرضت للإزاحة والتعطيل والسحق.

القوى السياسية الموجودة على الأرض المتحصنة بالجيش وفي الدين في الأرياف، برهنت على أنها أقوى وأفضل تنظيمًا من عنصر الطبقة الوسطى المتظاهر دفاعًا عن المبادئ الديموقراطية في ساحة التحرير.

انتخب محمد مرسي لمنصب رئيس الجمهورية، وبعد الوصول إلى السلطة سارعت الحكومة الإسلامية إلى التركيز على مأسسة سلطتها، غاضة الطرف عن تصعيد أنصارها حملة تخويف وإزعاج ضد النساء والأقليات والمعارضين.

قرار الجيش بإطاحة هذه الحكومة قوبل بالترحيب حتى في أوساط ديموقراطية، علمانية، التي باتت الآن مهمشة.

هذه التجربة تثير عد تساؤلات: هل ترى أمريكا نفسها ملزمة بدعم أي انتفاضة شعبية ضد أي نظام حكم لا ديمقراطي، بما فيها تلك التي تعد إلى الآن ذات شأن في إدامة النظام الدولي؟ هل تلك الدول الخليجية حليفة فقط إلى حين تطور مظاهرات شعبية على أراضيها؟

من مساهمات أمريكا في الربيع العربي أنها أدانت، عارضت، أو عملت على إزاحة حكومات عدتها أوتوقراطية (استبدادية) بما فيها الحكومة المصرية التي كانت تعتبرها قبل ذلك حليفًا لها، غير أن الرسالة المركزية، بالنسبة إلى بعض الحكومات الصديقة تقليديًّا، باتت ترى بوصفها تهديدًا بتخلي أمريكا، لا على أنها إيجابيات إصلاح ليبرالي.

التراث الغربي يشترط دعم المؤسسات الديمقراطية والانتخابات الحرة، غير أن من شأن الدفاع عن الانتخابات إذا ما مورس لمصلحة أطراف تماهي بين الديمقراطية والاستفتاء على صعيد تطبيق الهيمنة الدينية التي يتعاملون معها بعد ذلك على أنها غير قابلة للارتداد، أن يتمخض عن ممارسة ديمقراطية لمرة واحدة فقط من قبل تلك الأطراف؟

بما أن نظامًا عسكريًّا قد تأسس من جديد في القاهرة فإن الأمر يعيد النقاش غير

المحسوم بالنسبة لأمريكا، حول المصالح الأمنية من ناحية وأهمية الدفاع عن أنظمة حكم إنسانية وذات مشروعية.

إلى أي حد يمكن المخاطرة بالمصالح الأمنية ثمنًا لحصيلة نوع من التطور النظري؟

طرفا المعادلة كلاهما مهمان، وإهمال أي مستقبل ديموقراطي -إذا افترضنا أننا نعرف كيف نوجهه- ينطوي على مخاطر طويلة الأمد، وإهمال الحاضر عن طريق التغافل عن العنصر الأمني ينطوي على خطر كارثة مباشرة.

بدت الثورة السورية في بدايتها تكرارًا لنظيرتها المصرية في ساحة التحرير، إلا أن توترات قديمة قدم الزمن تفجرت فأعادت إيقاظ النزاع الألفي بين الشيعة والسنة في سوريا، في حين أن الانتفاضة المصرية وحدت القوى القاعدية.

ونظرًا لكون سوريا معقدة سكانيًّا فإن الحرب الأهلية ما لبثت أن ورطت جماعات إثنية ودينية إضافية، وقوى خارجية دخلت في الصراع وتوالت الفظاعات الشنيعة، فلاذ الناجون بجيوب إثنية وطائفية طلبًا للحماية.

في النقاش العام الأمريكي تم التعامل مع الانتفاضة ضد بشار الأسد عبر مقارنتها بإزاحة مبارك وإبداله بآخر ائتلافي، ديمقراطي استيعابي، عبر الضغط مطالبة بنوع من الحل السياسي عبر الأمم المتحدة.

لكن أقدم أعضاء متمتعون بحق النقض في مجلس الأمن على الامتناع عن تأييد هذه الخطوة أو أي تدابير عسكرية.

كان الصراع قد تجاوز موضوع الديمقراطية بالنسبة إلى اللاعبين الرئيسيين السوريين والإقليميين، وباتوا يرون أن الحرب ليست من أجل الديمقراطية بل من أجل الغلبة، لم يكونوا يبالون بالديمقراطية إلا إذا صبت في مصلحة جماعتهم، لا أحد كان يرجح كفة أي نظام إذا لم يضمن تحكم حزبه بالنظام السياسي.

القضية الفلسطينية والنظام الدولي

جيلان من الأجيال العربية تربيا على قناعة أن دولة إسرائيل مغتصبة غير شرعية لتركة إسلامية، لكن ثمة قادة عظماء حاولوا التعالي على الجانب المفهومي للصراع عبر التفاوض من أجل التوصل إلى السلم القائم، مثل أنور السادات.

من الممكن التعرف على ثلاث وجهات نظر في المواقف العربية: فريق صغير

مخلص لكنه غير فعال دعائيًّا، يقبل بالتعايش مع إسرائيل ومستعد للعمل من أجل مثل هذا التعايش، فريق أوسع بكثير يسعى لتدمير إسرائيل بمجابهة دائمة، والفريق الثالث أولئك المستعدون للتفاوض مع إسرائيل ولكن مع تبرير المفاوضات، أقله داخليًّا، بوصفها إحدى وسائل إلحاق الهزيمة بالدولة اليهودية على مراحل.

فقدت القضية الفلسطينية في العالم العربي بعضًا من إلحاحها، وإن لم تفقد شيئًا من أهميتها، ولا تزال الدول العربية الرئيسية إما ممزقة بحروب أهلية أو كثيفة الانشغال بالصراع السني الشيعي وبإيران المتزايدة القوة.

إن الصراع بين مفهومين للنظام العالمي متجذر في القضية الإسرائيلية - الفلسطينية، فإسرائيل دولة وستفالية، أسست على هذا الأساس في عام 7491، وظلت الولايات المتحدة حليفتها الرئيسية، أحد رعاة نظام وستفاليا الدولي والمدافعين الأساسيين عنه.

لكن الدول والفئات المحورية في الشرق الأوسط تنظر إلى النظام الدولي عبر هذا النوع أو ذاك من أنواع المنظار الإسلامي، فبين إسرائيل وجاراتها خلافات وثيقة الارتباط بالجغرافيا والتاريخ.

المملكة العربية السعودية

بشيء من المفارقة التاريخية الباعثة على التساؤل أن من بين حلفاء الأنظمة الديمقراطية الغربية الأهم عبر كل هذه الانتفاضات بلدًا ذا ممارسة داخلية مختلفة كليًّا تقريبًا عن ممارسة تلك الأنظمة وهي المملكة العربية السعودية، والتي بقيت شريكة بهدوء أحيانًا ولكن بحسم خلف الكواليس في جل المشروعات الأمنية الإقليمية الكبرى منذ الحرب العالمية الثانية.

ثمة عائلتان توحدتا في دعم متبادل منذ القرن الثامن عشر يتولى رئاسة التراتبية السياسية عاهل من آل سعود، أما التراتب الديني فيرأسه المفتي الأكبر وهيئة كبار العلماء وأكثريتهم من عائلة آل الشيخ.

يتعايش الحكام السعوديون مع إدراك أن من شأن شهوة أو طمع جيرانهم أن تتحول إلى محاولة غزو أو رعاية محتملة لتحريض سياسي وطائفي، في حقبة عامرة بالثورة.

وانتباههم إلى مصائر الدول القريبة جعلهم متصفين بالتمهل إزاء عملية التحديث على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، من منطلق معرفتهم أن من شأن غياب الإصلاح



أن يستعدي الكتلة السكانية الفتية، في حين يفضي الإصلاح المتسرع إلى تطوير زخمه الخاص وصولاً لتعريض البلد الذي لم يعرف سوى النظام الملكي إلى الخطر.

حاولت الأسرة الحاكمة ريادة عملية التغيير الاجتماعي والاقتصادي في إطار نمط مجتمعها، وهذا التكتيك أتاح لهم إنتاج ما يكفي من التغيير للحيلولة دون تراكم تواترت اجتماعية قابلة للانفجار، مع تجنب تأثيرات التغيير المتسرع.

أما السياسة الخارجية فتمتاز بنوع من الحذر، فلو اتبعت المملكة سياسة متقدمة جدًّا لجعلت من نفسها بؤرة صراع لسائر النزاعات، ولباتت عرضة لسيل من التهديدات، لكن سلطاتها نجحت في بلوغ الأمن والمرجعية عن طريق الابتعاد.

بقيت استراتيجية المملكة القائمة على النأي بالنفس تفعل فعلها طوال بقاء الدول السنية الخاضعة لحد كبير لأنظمة عسكرية، ولكن ما إن ظهرت القاعدة، وأسست إيران آيات الله قيادتها لمعسكر ثوري كفاحي عبر المنطقة، وراح الإخوان المسلمون يهددون بالاستيلاء على السلطة في مصر وغيرها، وجدت المملكة نفسها في مواجهة اثنتين من صيغ الحرب الأهلية في الشرق الأوسط، بين أنظمة حكم إسلامية كانت أعضاء في منظومة الدول الوستفالية وإسلاميين رأوا مؤسسات الدولة ومؤسسات النظام الدولي السائدة نوعًا من الإساءة إلى القرآن من جهة وبين الشيعة والسنة عبر المنطقة مع تولي إيران والسعودية قيادة طرفين متحاربين من جهة ثانية.

إن النزاع المتكشف الآن هو نزاع مذهبي من ناحية وصراع جيوسياسي من ناحية ثانية في الوقت نفسه.

كتلة سنية مؤلفة من السعودية ودول الخليج، ومصر، وتركيا إلى حد ما تتجابه مع كتلة بقيادة إيران، تدعم حصة بشار الأسد من سوريا وعراق المالكي الأوسط والجنوبي، وميليشيات حزب الله وحماس في لبنان وغزة، وتقوم الكتلة السنية بتوفير الدعم لانتفاضتين في سوريا ضد الأسد وفي العراق ضد المالكي، وتستهدف إيران السيطرة الإقليمية عن طريق استخدام ظروف غير رسمية مرتبطة بطهران أيديولوجيًّا وصولاً إلى تقويض المشروعية الداخلية لمنافسيها الإقليميين.

الفصل الرابع

الولايات المتحدة وإيران مقاربتان للنظام

مع ثورة إيران ضد الشاه، باتت حركة إسلاموية عازمة على إطاحة نظام وستفالية ممسكة بزمام دولة حديثة ومؤكدة حقوقها وامتيازاتها الوستفالية، شاغلة مقعدها في الأمم المتحدة، موجهة تجارتها ومشغلة جهازها الدبلوماسي.

وجد نظام إيران الديني نفسه عند خط تقاطع نظامين عالميين مطالبًا دون وجه حق بالحمايات الرسمية للنظام الوستفالي، مع استمراره في الإصرار على تكرار عدم إيمانه له، وعدم استعداد للالتزام به، واعتزامه استبداله آخر المطاف.

هذه الثنائية بقيت متجذرة في عقيدة الحكم الإيرانية، وتتبنى إيران عنوان الجمهورية الإسلامية موحية بكيان ذي مرجعية متعالية على الحدود الجغرافية، وآية الله الذي يرأس السلطة الإيرانية ينظر إليه لا بوصفه مجرد شخصية إيرانية، بل على أنه مرجع عالمي، وقائد الأمة الإسلامية والمظلومين.

فرضت الجمهورية الإيرانية نفسها على المسرح العالمي بانتهاك هائل لأحد مبادئ النظام الدولي الوستفالي عبر الإغارة على السفارة الأمريكية في طهران واحتجاز العاملين فيها، كما ظلت إيران بوجهها الإسلاموي تدعم منظمات مثل حزب الله في لبنان وجيش المهدي في العراق وهي تنظيمات خارج الدولة.

حول موضوع الحاجة إلى إطاحة النظام العالمي القائم كان الإسلاميون على الضفتين السنية والشيعية، متفقين عمومًا، ومهما كانت حدة الانقسام العقدي فإن آراء سيد قطب كانت متطابقة جوهريًّا مع نظيرتها المطروحة من قبل ملالي إيران السياسيين من آيات الله.

الانتشار النووي وإيران

كثيرًا ما قيل: إن مقاربة جديدة للعلاقات الأمريكية الإيرانية تخرج من رحم المفاوضات النووية، مقاربة سوف تعوض عن التخلي عن مواقع الغرب التاريخي، وكثيرًا ما يتم الإتيان على ذكر مثال علاقة أمريكا بالصين على هذا الصعيد؛ لأنها تحولت من العداء إلى القبول

المتبادل، بل وإلى التعاون في فترة زمنية قصيرة نسبيًّا في سبعينيات القرن العشرين، يقال أحيانًا: إن إيران قد تكون مستعدة للجم توظيفها الدبلوماسي لبرنامجها النووي العسكري الافتراضي مقابل حسن نية الولايات المتحدة وتعاونها الاستراتيجي.

الفصل الخامس

تعددية آسيا

بعد عقود من الحرب والاضطرابات الثورية العنيفة، تحولت آسيا تحولاً مسرحيًّا مثيرًا، فصعود نمور آسيا الذي تجلى بدءًا بعام 0791 سلط الأضواء على الازدهار والحيوية الاقتصادية. ومع تكشف هذه التغيرات فإن سياسة خارجية قائمة على أساس المصلحة الوطنية القومية معطوفة على المبادئ الوستفالية بدت سائدة في آسيا.

برزت آسيا كما لو كانت إحدى التركات الأهم للنظام الوستفالي، شعوب تاريخية متخاصمة في الغالب، عاكفة على تنظيم نفسها بوصفها دولاً سيادية، مع تنظيم دولها في تجمعات إقليمية.

اليابان

بعد تعرض أوروبا للاستنزاف في الحرب العالمية الأولى استنتج قادة اليابان أن عالمًا مبتليًا بالصراع والأزمة المالية والانعزالية الأمريكية، يفضل توسعًا إمبراطوريًّا هادفًا إلى فرض الهيمنة على آسيا، فقامت اليابان بفصل منشوريا عن الصين في عام 1391، وجعلتها دولة تابعة دائرة في فلكها تحت حكم الإمبراطور الصيني.

وحاولت اليابان باسم نظام جديد في آسيا أولاً ومنطقة ازدهار مشترك في شرق آسيا بعد ذلك، وتنظيم فضاء نفوذها الخاص المعادي لوستفاليا، ككتلة آمم آسيوية بقيادة يابانية ومتحررة من القوى الغربية.

كان أعضاء النظام الدولي القائم شديدي الإرهاق تحت وطأة الحرب العالمية الأولى، وبقي بلد أوروبي واحد لا غير حجر عثرة على طريق مخطط اليابان، كانت الولايات المتحدة، وسقطت القنابل اليابانية على أرض أمريكية (بيرل هاربر)، وبلغ الاستنفار الأمريكي أوجه في استخدام سلاحين نوويين، متمخضًا عن استسلام اليابان.

تكيفت اليابان مع الهزيمة بثبات وروح قومية وطنية لا تقهر مستندة إلى ثقافة قومية وطنية مميزة لاستعادة الأمة اليابانية.

سلمت الطبقة الحاكمة اليابانية في ما بعد الحرب بالدستور الذي وضعته سلطات الاحتلال الأمريكية، وفي الوقت نفسه قام قادة اليابان بالتوفيق بين الدور الفريد لبلدهم المنزوع السلاح وجملة أهداف اليابان الاستراتيجية الطويلة المدى.

تمثل تأثير المرحلة الأولى من تطور اليابان في فترة ما بعد الحرب بإخراج نفسها من سياقات الحرب الباردة، مركزة على التنمية الاقتصادية التحويلية، ووضعت اليابان نفسها حقوقيًّا في معسكر الأنظمة الديمقراطية المتطورة، غير أنها عزفت عن الالتحاق بركب صراعات العصر الأيديولوجيا، ونتيجة ذلك كانت فترة نمو مطرد ومتسق، وفي غضون عقدين بعد تدمير الحرب كانت اليابان قد أعادت بناء نفسها قوة اقتصادية عالمية كبرى.

هذان التلاحم الاجتماعي والإحساس بالالتزام القومي الوطني اللذان وفرا إمكانية حصول هذا التحول.

الفصل السادس

نحو نظام آسيوي

مجابهة أم شراكة

لعل السمة الأكثر شيوعًا للدول الآسيوية هي شعورها بأنها تمثل بلدانًا ناشئة أو "بعد استعمارية" متحررة من الاستعمار، حاولت جميعها التغلب على إرث الحكم الاستعماري عبر تأكيد هوية قومية وطنية تتقاسم نوعًا من الاقتناع بأن نظامًا عالميًّا يعيد توازنه الآن بعد فتنة غربية غير طبيعية على امتداد عدد من القرون.

نظام آسيا الدولي والصين

اعتمدت الصين الشكل الأطول مدى، الأوضح تحديدًا، والأبعد عن الأفكار الوستفالية، كذلك قامت الصين بأكثر الرحلات تعقيدًا من حضارة قديمة إلى مكانة قوة عظمى حديثة، مرورًا بإمبراطورية كلاسيكية وثورة شيوعية.

الخصوبة الغنية لسهول الصين مع ثقافة استثنائية العراقة، إضافة إلى دهاء سياسي مكنت الصين من أن تبقى موحدة على امتداد الجزء الأكبر من حقبة ألفيتين، ومن أن تمارس نفوذًا لافتًا ومعتبرًا على مختلف الصعد السياسية الاقتصادية والثقافية، حتى حين كانت ضعيفة عسكريًّا بالمقاييس التقليدية كان تفوقها النسبي كامنًا في غنى اقتصادها الذي كان ينتج سلعًا مرغوبة من جميع جيرانها.

مرت الصين بفترة تمزق جراء الاحتلال الياباني والحرب الأهلية والفوضى الثورية اللتين شكلتا تحديًا لجميع العلاقات والموروثات.

مع تولي دنغ هسياوينغ الحكم بعد وفاة ماو في 6791 سارع إلى مباشرة إصلاح الاقتصاد، ودفع المجتمع إلى الانفتاح سائرًا في طريق ما أطلق عليه اسم اشتراكية بقسمات صينية، وحرر طاقات الشعب الصيني الكامنة، وفي أقل من جيل تقدمت الصين لتصبح ثاني أكبر الاقتصادات في العالم، وتعجيلاً لعملية التحول المسرحية المثيرة هذه، ودون اقتناع بالضرورة

انضمت الصين إلى المؤسسات الدولية وسلمت بجملة القواعد المعتمدة للنظام العالمي.

إن رد الفعل الغريزي للكثير من القادة الصينيين ظل عميق التأثر بإدراك أن الصين لم تكن قد شاركت في وضع قواعد النظام وهم مطالبون بالتزام قواعد لم يكن قد سبق لهم أن كانوا جزءًا من عملية صوغها، ولكنهم يتوقعون وسوف يتصرفون وفقًا لهذا التوقع عاجلاً أو آجلاً أن تطور النظام الدولي بما يمكن الصين من أن تصبح منخرطة مركزيًّا في المزيد من عمليات صوغ القواعد الدولية، وصولاً حتى إلى إعادة النظر في بعض القواعد السائدة.

كل من الولايات المتحدة والصين ركيزة لا يمكن الاستغناء عنها لأي نظام عالمي، ومن اللافت أن كليهما اتخذتا تاريخيًّا موقفًا ملتبسًا إزاء النظام العالمي الذي تلوذان به الآن، مؤكدتان التزامهما إياه حتى وهما تتحفظان حول جوانب من تصميمه.

لم تشارك الصين والولايات المتحدة في تاريخيهما مشاركة كاملة في أي جهاز دولي لمنظومة دول سيادية إلا مؤخرًا، ثمة مجتمعان عظيمان بثقافتين مختلفتين ومبادئ متباينة باتا كلاهما مبادرين إلى إحداث تغييرات وتعديلات أو عمليات تكيف داخلية عميقة، ما إذا كان الأمر سيترجم إلى منافسة أم إلى صيغة شراكة جديدة سيكون عاملاً مهمًّا من عوامل تشكيل جوانب من نظام القرن الواحد والعشرين العالمي.

نظرة الجانب الصيني من التحركات الأمريكية تعتبرها نوعًا من التصميم على شل حركة الصين الصاعدة، مع رؤية التأييد الأمريكي لحقوق الإنسان مشروعًا يهدف إلى تقويض البنية السياسية الداخلية للصين، بعض كبار الشخصيات ترى سياسة أمريكا المحورية المزعومة لإبقاء الصين على الدوام في مرتبة ثانية.

أما الجانب الأمريكي فإن الخوف هو أن من شأن أي صين متنامية أن تعمد منهجيًّا إلى تقويض التفوق الأمريكي، وصولاً إذن إلى تقويض أمن أمريكا، ثمة فئات مهمة ترى الصين عازمة مثلها مثل الاتحاد السوفيتي أيام الحرب الباردة على بلوغ السيطرة العسكرية كما الاقتصادية على جميع الأقاليم المحيطة، وصولاً آخر المطاف إلى الهيمنة.

وشكوك كل من الطرفين تتعزز جراء المناورات العسكرية والبرامج الدفاعية لدى الطرف المقابل.

الطرفان كلاهما بحاجة لاستيعاب تجربة العقد الذي سبق الحرب الباردة عندما تصاعد الانبثاق التدريجي لنوع من أجواء الريبة والمجابهة المضمرة إلى كارثة، أوقع قادة أوروبا في فخ التخطيط العسكري والعجز عن التمييز بين ما هو تكتيكي وما هو استراتيجي.

الفصل السابع

"خدمة للبشرية كلها"

الولايات المتحدة وتصورها للنظام العالمي

أدى انفتاح الثقافة الأمريكية مشفوعة بمبادئها الديمقراطية إلى جعل الولايات المتحدة أنموذجًا وملاذًا للملايين، وفي الوقت نفسه أضفى الإيمان بأن المبادئ الأمريكية كونية، وتشتمل على عنصر تحد للنظام الدولي؛ لانطوائه على أن الحكومات التي لا تمارس الديمقراطية ناقصة المشروعية، وهذا الإيمان وهو عميق الجذور في نمط التفكير الأمريكي إلى درجة أنه يتم طرحه أحيانًا كما لو كان سياسة رسمية.

في حربين عالميتين وثالثة باردة، بادرت الولايات المتحدة إلى الإقدام بحسم لتثبيت النظام الدولي وتحصينه ضد جملة من التهديدات المعادية والختامية المحتملة، وظلت الولايات المتحدة محافظة على منظومة الدول الوستفالية، وتوازن القوة مع الاستمرار في توجيه اللوم إلى مؤسسات تلك المنظومة بالذات بشأن اندلاع الاشتباكات، والإعلان عن نوع من الرغبة في بناء صرح عالم جديد كليًّا.

الفصل الثامن

الولايات المتحدة

قوة عظمى مترددة

دأب جميع رؤساء الجمهورية من الحزبين السياسيين كليهما على إعلان مدى قابلية تطبيق المبادئ الأمريكية على العالم بأسره.

ذلك الشعور بالمسؤولية عن النظام العالمي وباستحالة الاستغناء عن القوة الأمريكية، معززًا بإجماع أقام نزعة القيادة الأخلاقية الكونية على قاعدة إخلاص الشعب الأمريكي للحرية والديمقراطية، تمخض عن جملة الإنجازات الخارقة لفترة الحرب الباردة وما بعدها.

ساعدت أمريكا على إعادة بناء الاقتصادات الأوروبية المدمرة، أوجدت الحلف الأطلسي، واقترحت شبكة أمان وشراكات اقتصادية عالمية منفتحة، وفرت الوقود اللازم للإنتاجية والازدهار، ودعمت أنظمة الحكم القائمة على المشاركة في البلدان الصديقة وغير الصديقة على حد سواء، واضطلعت بدور قيادي في صوغ مبادئ إنسانية جديدة.

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية خاضت أمريكا دفاعًا عن رؤيتها للنظام العالمي خمس حروب باسم أهداف كبرى متمتعة بتأييد شعبي شبه شامل، ما لبثت فيما بعد أن تحول إلى نزاع شعبي، وفي ثلاث من هذه الحروب انقلب إجماع المؤسسة بغتة إلى احتضان برنامج انسحاب آحادي غير مشروط عمليًا، تخلت الولايات المتحدة عن حروب غير مكتملة بوصفها منحرفة أو خاطئة، ففي فيتنام نتيجة قرارات برلمانية، في العراق وأفغانستان باختيار رئيس الجمهورية.

بعد حرب ستينيات القرن العشرين وانهيار منصب الرئاسة، باتت أمريكا بحاجة قبل كل شيء إلى استعادة التماسك، لحسن الحظ أن الرجل الذي دعي إلى تنفيذ هذه المهمة كان هو جيرالد فورد.

تمثلت خدمة فورد التاريخية بالتغلب على انقسامات أمريكا، ففي سياسته الخارجية سعى لعطف القوة على المبدأ.

شهدت إدارته إنجاز الاتفاقية الأولى بين إسرائيل ومصر، تلك الاتفاقية التي كانت بنودها

سياسية إلى حد كبير، واتفاقية الفصل الثاني في سيناء شكلت انعطافة مصر الحاسمة غير القابلة للارتداد نحو اتفاقية للسلام.

كما بادر فورد إلى إطلاق حركة دبلوماسية نشيطة لتحقيق حكم أكثري في جنوب إفريقيا، وتولى فورد الإشراف على إنجاز مؤتمر الأمن الأوروبي.

مع تولي كارتر سقطت إيران بأيدي مجموعة من آيات الله، الذين سارعوا عمليًّا بشن حرب سياسية وأيديولوجية على الولايات المتحدة، ناسفين توازن القوى السائد في الشرق الأوسط، وعلى نحو شبه متزامن شعر الاتحاد السوفيتي أنه في وضع مناسب لغزو أفغانستان واحتلالها.

وفي زحمة هذه الفوضى تحلى كارتر بالشجاعة اللازمة لدفع عملية السلام في الشرق الأوسط، فمعاهدة السلام بين إسرائيل ومصر كانت حدثًا تاريخيًّا، كما قام كارتر بتعزيز الانفتاح على الصين عبر إقامة علاقة دبلوماسية كاملة معها.

رونالد ريغان ونهاية الحرب الباردة

مستشعرًا نقطة ضعف سوفيتية محتملة وعميق الثقة بتفوق النظام الأمريكي، قام ريغان بالمزاوجة بين عنصري القوة والمشروعية اللذين كانا قد تمخضا عن التردد الأمريكي في العقد السابق.

تحدى ريجان الاتحاد السوفيتي في مجال التسلح والتكنولوجيا، فيما باتت تعرف باسم مبادرة الدفاع الاستراتيجية، درع دفاعية ضد الهجمات الصاروخية، وقوبلت لدى طرحها من قبل ريغان بقدر كبير من السخرية في الكونغرس ووسائل الإعلام، أما اليوم فتعد صاحبة فضل إقناع القيادة السوفيتية بعدم جدوى سباق تسلحه مع الولايات المتحدة.

كان ريغان يؤمن بأن من شأن الصراع أن ينتهي مع إدراك الخصم لحقيقة تفوق المبادئ الأمريكية.

حربا أفغانستان والعراق

تبين أن التحذيرات الأولية حول تاريخ أفغانستان بوصفها مقبرة الإمبراطوريات بل أساس، فبعد عمل سريع قادته قوات أمريكية وبريطانية وأفغانية حليفة، تمت إطاحة الطالبان وإخراجه من السلطة.

أعلن مؤتمر دولي عقد في بون الألمانية، حكومة أفغانية مؤقتة برئاسة حميد قرضاي، وبدت أهداف حرب الحلفاء متحققة منجزة.

بدت الأهداف المتمثلة بقيام حكم مركزي أفغاني ديمقراطي نوعًا من اختراع جذرية للتاريخ الأفغاني، عمليًّا جرى رفع قبيلة واحدة إلى ما فوق سائر القبائل، وهي قبيلة قرضاي، مع إعادة خلط مشاكل التحالفات القبيلة بصيغ كانت صعبة الفهم أو التحكم بالنسبة إلى أي قوة خارجية.

الانتخابات الأمريكية 8002 أضافت مشكلة التردد إلى مشكلة التعقيد، كان الرئيس الجديد باراك أوباما قد خاض حملته تحت شعار اعتزامه استعادة القوات التي تستنزفها الحرب الغبية في العراق، هذه الحرب التي صمم على إنهائها.

إلى الحرب الضرورية في أفغانستان

تم إرسال ثلاثين ألف جندي إلى أفغانستان مصحوبًا بموعد أخير معلن بعد ثمانية عشر شهرًا، للشروع في سحبها.

تمخض الآن التاريخ المحدد لفقدان العدم الخارجي بالنسبة إلى القادة في كابول، وعن إطلاق سيرورة مناورات فئوية وتكتلية بما فيها مع الطالبان.

مع حالات التمزق والقبلية وتواجد الجماعات الجهادية، سيعمد كل جار رئيسي لأفغانستان إلى دعم فئات وفصائل متنافسة ذات انتماءات إثنية، طائفية، مذهبية، ومن شأن تلك النتيجة المحتملة أن يكون تقسيم أفغانستان أمرًا واقعًا.

العراق

نظرًا للانقسامات الإثنية في العراق والنزاع الألفي بين السنة والشيعة، وفي ظل ظروف القتال، وفي زحمة سجالات أمريكية داخلية حاسمة، أضفت على المسعى الأمريكي في العراق عباءة سيزيفية (غير هادفة).

اجتراح نظام ديمقراطي تعددي بدلاً من صدام حسين الوحشي أثبت أنه أصعب بكثير من إطاحة الدكتاتور، فالشيعة المحرومون منذ زمن طويل كانوا ميالين إلى وضع إشارة المساواة بين الديمقراطية والمصادقة على هيمنتهم العددية، أما السنة فتعاملوا مع الديمقراطية كما لو كانت مؤامرة خارجية لقمعهم، والأكراد في الشمال بادروا إلى تعزيز قدراتهم العسكرية

المنفصلة وجهدوا للسيطرة على حقول نفطية طلبًا لموارد غير معتمدة على الخزينة القومية الوطنية.

إيران دعمت مجموعات شيعية دائبة على تقويض استقلال الحكومة الوليدة، وسوريا شجعت على انتقال الأسلحة والجهاديين عبر أراضيها (بعواقب مدمرة آخر المطاف بالنسبة إلى تماسكها)، والقاعدة التي أطلقت حملة عمليات ذبح منهجية ضد الشيعة، في هذا الجو كان قرار بوش الجريء يناير 7002 بنشر دفعة قوات إضافية لإخماد العنف، لكن قراره قوبل بالرفض من مجلس الشيوخ، وبادر زعيم أكثرية المجلس إلى إعلان أن "هذه الحرب تمت خسارتها والدفعة لن تحقق شيئًا".

قيل: إن بوش اختتم جلسة تخطيطية في 7002 طارحًا سؤالاً: "إذا لم نكن هناك لننتصر فما الداعي لوجودنا هناك؟"

نجحت الدفعة التي أمر بها بوش بشجاعة ونفذها الجنرال ديفيد بترايوس في انتزاع حصيلة مشرفة من انهيار وشيك.

فاز باراك أوباما بترشيح الحزب الديمقراطي جزئيًّا على أساس قوة معارضته للحرب العراقية، وبعد توليه المنصب واصل انتقاده العلني لسلفه.

الفصل التاسع

التكنولوجيا، التعادل، والوعي الإنساني

النظام العالمي في العصر النووي

فرض العصر النووي مأزق الاهتداء إلى نوع من العلاقات الأخلاقية أو السياسية بين تدميرية الأسلحة النووية الحديثة من جهة، وجملة الأهداف المتوخاة من جهة ثانية، باتت آفاق أي نوع من أنواع النظام الدولي لبقاء البشرية تشترط بإلحاح تخفيف الصراع بين القوى الكبرى، بل استئصاله، ليمنع استخدام أي من القوتين العظميين مجمل قدراتها العسكرية.

جرى تعريف الاستقرار الاستراتيجي على أنه نوع من التوازن لن يقدم فيه أي من الطرفين على استخدام أسلحة الدمار الشامل؛ لأن الخصم كان على الدوام قادرًا على إحداث مستوى غير مقبول من التدمير انتقامًا.

تكنولوجيا المعلومات والنظام العالمي

تأثيرات التطور تطال سائر مستويات التنظيم البشري، مستخدمو الهواتف الذكية يتوفرون الآن على قدرات معلوماتية وتحليلية تفوق مستوى العديد من الأجهزة الاستخباراتية قبل جيل واحد.

صار الفضاء المعلوماتي أمرًا لا يمكن الاستغناء عنه استراتيجيًّا، تنبأ قائد القيادة المعلوماتية الأمريكية بأن الحرب القادمة ستبدأ في الفضاء المعلوماتي.

ثمة عصابة سطو سرية أثبتت سلفًا أنها قادرة على اختراق شبكات حكومية ونشر معلومات سرية على نطاق يكفي للتأثير في السلوك الدبلوماسي.

نجحت الستكسنت أحد أمثلة اختراق الدولة معلوماتيًّا في تعطيل وتأخير جهود الهند النووية، عبر بعض الحسابات إلى مستوى ينافس تأثيرات أي ضربة عسكرية محدودة، وهجوم البوتنت من روسيا على أستونيا شل الاتصالات أيامًا.



هدية العدد ١٩ من مجلة كلمة حق فبراير ٢٠١٩